

الدرس الثالث

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَمْ آتِ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّكَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ هَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(الحجر: ٢٦-٤٤).

الخلق المنظور والخلق المستور :

يريد الله سبحانه أن يعرفنا بقصة الإنسانية ، منذ بدء هذه الخليقة البشرية المكلفة ، فقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ .

يذكر لنا قصة هذين الخلقين من المكلفين : الخلق المنظور والخلق المستور .

الخلق المنظور : هم البشر بنو آدم . والخلق المستور : هم الجن أو الجان .

كلمة (جنّ) يعنى استترّ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ ، أي : استتر في ظلمة الليل ، فالجنُّ هم الخلق المستورون : ﴿ إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٢٧) ، خلق مُغَيَّبُونَ عَنَّا ، الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وخلق الجنان .

الإنسان المذكور في هذه القصة هو آدم عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾

لم يُذكر هنا اسم آدم في هذه القصة ، ولكن القصة كلها معروفة أنها لآدم ، وقد ذكرت هذه القصة من قبل في سورة البقرة ، وذكرت من قبل في سورة الأعراف ، وذكرت باسم آدم علانية وصراحة ، وهنا لم يذكر اسم آدم ، ومن المعلوم أنّ الإنسان الأول هو آدم عليه السلام^(١) ، هو الإنسان ، وهو البشر .

بعض إخواننا الذين تحدّثوا في هذه القضايا ، قالوا : الإنسان شيءٌ والبشر شيءٌ . ولكن القرآن لم يفرّق بين الإنسان والبشر ، في الآيات التالية يقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ، وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٦) ، فالإنسان هو البشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ ﴾ : طين يابس ، يُسمع له صلصلة إذا نُقر ، ﴿ مِنْ حَمَإٍ ﴾ : طين أسود ، ﴿ مَسْنُونٍ ﴾^(٢) : متغيّر ، أي : تغيّرت رائحته بعد زمن فتخمّر ، فالمادة التي خلقت منها الإنسان من الأرض ، فالإنسان خلقت من الأرض ، ويعود إلى الأرض ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (طه: ٥٥).

(١) قيل : سُمِّي إنساناً ، لأنه عهد إليه فَنَسِي ، ودخل من بعده في ذلك ، إذ هو من نسله .

(٢) المسنون أيضاً : المصقول المُملَس .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، فالإنسان مخلوق من جنس الأرض ، من ترابها ومعادنها وأملاحها ، لذلك يقولون : إذا تحلّل جسم الإنسان في القبر ، تحوّل إلى حُفّات من تراب ، خُلِقنا من التراب ، ونعود إلى التراب .

التوفيق بين الآيات التي ذكرت خلق آدم من تراب ومن طين ومن صلصال :

القرآن الكريم أحياناً يقول : إِنَّ آدَمَ خَلَقَ مِنْ تَرَابٍ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩) .

وأحياناً يقول : من طين ، كما في سورة ص : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾

(ص: ٧١) .

وهنا قال : ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، هل هناك تعارض؟

ليس هناك تعارض ، فالتراب إذا نزل عليه الماء أصبح طيناً ، وإذا يبس هذا الطين يصبح صلصالاً ، وإذا تغيّر وأثّن ريحه يُصبح حمأً ، مرّت على الإنسان الأول (آدم) هذه الأحوال كلّها ، ولا مانع من ذلك ، ولكن كلّ الذي يهمنا أنه مخلوق من جنس هذه الأرض .

الإنسان مخلوق ضعيف :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، هذا الإنسان مخلوق ، وليس إلهاً كما يريد بعض الفلاسفة الماديين^(١) ، يُؤلّهون الإنسان ، وبعضهم يقول : (الإنسان يقوم وحده) في غير حاجة إلى إله . وردّ على هذا الرجل الملحّد أحد العلماء الغربيين (كريسي موريسون) في كتاب سمّاه (الإنسان لا يقوم وحده) ،

(١) هو جوليان هكسلي ، المولود في المملكة المتحدة سنة ١٨٧٧ م ، فليسوف ملحّد ، توفي عام ١٩٧٥ م .

لا يستطيع الإنسان أن يقوم وحده ، وترجم هذا الكتاب إلى العربية ، تحت عنوان :
(العلم يدعو إلى الإيمان).

هذا يدلنا على أن هذا الإنسان مخلوق ، خلقه خالق ، وأنشأه منشيء ، لم يخلق نفسه ، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦).

قانون العلية :

هل الإنسان خلق من غير شيء؟ مستحيلٌ هذا ؛ لأنَّ هناك قانونًا فطريًا وعقليًا ، يُجمع عليه كلُّ الفلاسفة والمفكرين ، اسمه قانون العلية أو قانون السببية : أن كلَّ معلول لا بدَّ له من علَّة ، وكلُّ مسبب لا بدَّ له من سبب ، وكلُّ متحرِّك لا بدَّ له من محرِّك . كما عبَّر عن ذلك الأعرابي حينما سئل عن الله ، فقال ببساطته وبلغته الفصيحة : البعرة تدلُّ على البعير ، وخطُّ السير يدلُّ على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدلُّ ذلك على العليِّ الكبير؟! .

هذا هو قانون العلية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ (الطور: ٣٥)؟ لا يمكن أن يُخلَقوا من غير شيء ، لا بدَّ من خالق : ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ؟ هل هم الذين خلَقوا أنفسهم؟ لا يستطيع أحدٌ أن يقول ذلك ؛ لأنَّ العدم لا يخلق الوجود ، والمخلوق كان معدومًا ، كيف يخلق نفسه وهو عدم؟ ﴿ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الطور: ٣٦)؟ السماوات والأرض موجودة قبل أن يُخلَق ، كيف يخلقها؟ حتى الذين ادَّعوا الربوبية ، مثل : النمرود وفرعون ، مثل هؤلاء ، لم يدَّعوا أنهم خلَقوا السماوات والأرض .

فالإنسان مخلوقٌ بعد خلق السماوات والأرض ، ولذلك تؤكد هذه الآية ، هذه الحقيقة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ ، الله هو خالق الإنسان .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ، مُتَغَيَّرٌ مُنْتِنٌ الرَّائِحَةُ ، هذا المخلوق العظيم الذي كَرَّمَهُ اللهُ ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَخْلُوقٌ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ الضَّعِيفَةِ الْهَيْئَةِ .

خلق الجنَّ قبل الإنسان من نار السَّموم :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ ، الجنُّ : أبو شياطين الجن ، وإبليس من ذُرِّيَّتِهِ .

والجنُّ : خلقٌ مستور عن أعين البشر ، ومنهم المؤمنون الصَّالِحُونَ ، ومنهم الشياطين الكافرون ، وهم جنس مُكَلَّفٌ مثل الإنسان : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) ، هؤلاء خُلِقُوا مِنْ نَارِ السَّمُومِ ، نار حارَّةٌ ، وتحمل السَّمُومُ : الهواء الحار القاتل ، الذي تخترق سمومه المسام^(١) . ينفذ إلى مسام الجلد ، ومنه : السَّمُّ الذي يخترق مسام الإنسان ، ويؤدِّي إلى قتله .

خُلِقَ هؤلاء الجنَّ من نار السَّمُومِ ، أو من مَارِجٍ من نار ، ويقول سبحانه عن الجنَّ ، ﴿ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أي : الجنَّ خُلِقُوا قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ ، اللهُ سبحانه خلق الجنَّ ، وكان لهم في الأرض ما لهم ، ثم خلق بعد ما شاء من ألوف السنين ، أو من ملايين السنين ، اللهُ أعلم .

تحديد عمر الأرض :

هذه الأزمنة الضاربة في أغوار الزمن لا نعلم عنها شيئاً ، ولذلك لا نخوض في تفاصيلها ، البيولوجيون والجيولوجيون يتحدثون عن ملايين السنين ، عن عمر

(١) المسام : المنافذ الخفية بين الأشياء ، كمسام الجسد - وهي مجاري العرق - جمع مفردة مَسَمٌ . وهو اسم مكان من مصدر : سَمَمَ ، أي : غرزهُ وَسَبَّرَهُ وثقبه . (المفصل في تفسير الجلالين) ص ٩٥٧ .

الأرض ، وعن عُمر الكون بالملايين والبلايين ، ونحن لا نُصدِّق ولا نُكذِّب ، وليس عندنا ما ينافي هذا في القرآن ، عندهم في التوراة : أنَّ الدنيا عمرها كلها سبعة آلاف سنة!!

قال الطبري : (زعم اليهود أن جميع ما ثبت عندهم على ما في التوراة ، مما هو فيها من لدن خلق الله آدم إلى وقت الهجرة ، وذلك في التوراة التي هي في أيديهم اليوم أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنان وأربعون سنة . . . وأما اليونانية من النصارى فإنها تزعم أن الذي ادعته اليهود من ذلك باطل وأن الصحيح من القول في قدر مدة أيام الدنيا من لدن خلق الله آدم إلى وقت هجرة نبينا محمد ﷺ على سياق ما عندهم في التوراة التي هي في أيديهم خمسة آلاف سنة وتسعمائة سنة واثنان وتسعون سنة وأشهر)^(١) .

وليس عندنا شيءٌ من هذا التَّخريف إطلاقاً ، لا يستطيع أحدٌ أن يقول : عمر الدنيا سبعة آلاف ، أو سبعة ملايين ، أو سبعة بلايين . ليس عندنا دليل من القرآن ولا السنة ، وهذا من روائع هذا الدين ، ومن إعجازه : أنه لا يوجد فيه شيءٌ ينافي العلم ، لا يوجد فيه أمر قطعي حقيقي ينافي حقيقة علمية قاطعة . لقد ذكر لنا القرآن أن عمر فرد واحد من البشر قد بلغ ألف سنة أو تزيد ، وهو عمر نوح عليه السلام ، فماذا تكون أعمار الأمم والقرون في القديم والحديث؟!

الملائكة الكرامُ من العالم غير المنظور :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّیْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلٰٓصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُوٰنٍ ﴾

(إذ) قال العلماء : معناها : اذكر ، ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ ، أي : اذكر - يا محمد - حينما قال ربُّك للملائكة : ﴿ اِنِّیْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِیْنٍ ﴾ (ص: ٧١) ، وهنا في آية الحجر :

(١) تاريخ الطبري (١٨٧/١) ، نشر دار التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ .

﴿ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، إذ قال ربك : خطابٌ للنبي ﷺ بهذا اللفظ ، ربُّك الذي يُرَبِّيك ويرعاك ويرقيك في مدارج الكمال لا يتخلى عنك .

الملائكة : مخلوقات نورانية معصومة مطهّرة ، وهم أيضًا نوعٌ من الخلق المستور ، من العالم غير المنظور ، هناك - كما قلنا - عالم منظور نشهده بأعيننا ، وهناك عالمٌ مستور غير منظور لا نراه بأعيننا ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الحاقة: ٣٨، ٣٩) ، وما لا نبصره أضعاف أضعاف ما نبصره ، حتى قال علماء الكون وعلماء الطبيعة : إنَّ الكون الماديّ الذي نعيش فيه ، نحن لا نبصر منه بكل أدواتنا إلا ثلاثة في المائة ، وسبعة وتسعون في المائة من هذا الكون المادي لا نعرفها . يُسمونها الأعماق السوداء ، لا نعرف عنها شيئًا ، فنحن نرى القليل ، فما بالك بالكون غير الماديّ ، هذا في الكون الماديّ ، إنّما الكون غير المادي ، مثل : الجن . مثل : الملائكة ، الذين خلّقوا من نور ، كما في الحديث الذي رواه السيدة عائشة رضي الله عنها ، في صحيح مسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجنُّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وُصف لكم » (١) . أي : من طين ، ومن صلصال من حمإٍ مسنون ، إلى غير ذلك ممّا جاء في القرآن الكريم .

فالملائكة مخلوقات نورانية روحانية ، الله سبحانه وتعالى فطرها على الطاعة : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحریم: ٦) ، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٧) ، فطروا على الطاعة ، ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٠) .

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦) ، وأحمد (٢٥١٩٤) .

تَسْوِيَةُ الْإِنْسَانِ وَنَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾^(١)

هؤلاء الملائكة قال الله تعالى لهم : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾^(٢) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿ ، هذا البشر المخلوق من الصَّلْصَالِ ، من الحمأ المسنون ، أو من الطين الممتن ، أو الطين اليابس ، من صَلْصَالِ كَالْفَخَّارِ ، هذا المخلوق ، إذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي . التسوية تهيئته لما يُعَدُّ له ، للوظيفة التي يقوم بها بعد مرحلة الخلق ، ومرحلة التَّسْوِيَةِ ، كما قال عزَّ وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾^(٣) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿^(٤) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ (الانفطار: ٦-٨) ، ثم بعد الخلق التَّسْوِيَةُ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿^(٥) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿^(٦) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿ (الأعلى: ١-٣) ، فالتسوية فرعٌ عن الخلق ، تكملةٌ للخلق : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿^(٧) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿ ، من تمام الخلق : التَّسْوِيَةُ ، ومن تمام التقدير : الهداية .

تمييز المخلوق بنفخ الروح فيه ، وجهل الإنسان بحقيقة الروح :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ، هذا هو الشيء الذي ميَّز هذا المخلوق ، المخلوق الطيني ، المخلوق الترابي ، المخلوق الصَّلْصَالِي ، المخلوق الحَمَائِي ، هذا المخلوق من الأرض ، هذا الذي ميَّزه ﴿ سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾^(٨) .

(١) سَوَّيْتُهُ أَي : أتممته وجعلته مستويًا معتدلاً مستعداً لفيضان الروح ، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ أَي : أحييته وخلقته فيه الحياة والقدرات الإنسانيَّة .

(٢) قال العلماء : الروح خلقٌ من خلق الله ، يكون وجوده بأمر التكوين المباشر ، دون وساطة أسباب من مخلوق سابق له . أضافه الله سبحانه إلى نفسه تشريعاً وتكريماً ، وعلى معنى الملك ، إذ كلُّ ما خلق الله هو ملكه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ (العنكبوت: ٥٦) ، ﴿ وَأَدْخَلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر: ٣٠) ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي ﴾ (الأنعام: ١٥٣) . والمعنى : فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه روحاً من جنس الروح الذي هو خلقٌ من خلقي ، ومَلِكٌ من ملكي فقعوا له ساجدين .

كيف تمّ هذا النَّفْخ من الرُّوح؟ بعض الناس يتساءل: كيف يتَّصل الفاني بالباقي؟ كيف يتَّصل المُحدِّث بالأزلي؟ كيف يتَّصل المخلوق بالخالق ، أو الخالق بالمخلوق ، كيف يتَّصل هذا بذلك؟ في الواقع لا نعرف كُنْهه ، يجب أن نقف عند حدودنا : (من سعادة جدِّك وقوفك عند حدِّك) . ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥) ، إذا كنَّا لا نعرف بعض حقائق هذه الحياة ، لا نعرف ما معنى الحياة الحقيقي ، إنما نعرف آثار الحياة ، ومن آثارها : النمو ، التنفُّس ، التكاثر ، ولكن ما هي الحياة نفسها؟ لا نعرفها ، كما لا نعرف حقيقة الكهرباء ، ولا حقيقة المغناطيس ، ولكن نعرف آثارها .

إذا كنَّا لا نعرف كُنْه الحقائق المادِّيَّة ، فكيف نتطاول إلى ما يتعلَّق بالربوبيَّة ، يجب أن نُوفِّر طاقاتنا العقليَّة ، بدلاً من أن نفكِّر في هذه المسائل ، التي تستنفد منا جهوداً ولا نحصلُ على شيء ، ولا نصلُ إلى شيء إلا التَّعب والمعاناة ، ثم نعودُ بخفيِّ حنين ، أو بغير خفيِّين ، بلا شيء نهائياً .

الأولى أن نُوفِّر هذا ، نعمل في الكون ، نتأمَّل في الكون ، نكتشف قوانين الكون ، نوجه قوى الكون ، هذا ما وجَّهنا الله تعالى إليه : ﴿ أُولَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) . كلُّ ما خَلَقَ الله مَجَالًا للنظر والتفكُّر والتأمُّل ، فنحن نقول : الله نفخ في هذا الإنسان من رُوحه ، كما شاء ، وكيف شاء .

سبب أمر الملائكة بالسجود لآدم :

﴿ فَقَعُّوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(١)

لم يأمرهم بالسُّجود لهذا المخلوق لمُجرَّد تكوينه الهيكلِي والماديّ ، من الطين ، أو الصَّلصال ، إنّما أمرهم أن يسجدوا له حينما نفخ فيه الرُّوح ، هذا هو

(١) قعوا : أي : انحنوا مُسرِّعين ، وعُبر عن ذلك بالوقوع للدلالة على سرعة الاستجابة بالانحناء والتضامن . (ساجدين) منصوب على أنه حال .

الذي كرم الإنسان ، هذا هو الذي ميّز الإنسان ، هذا هو الذي جعل هذا المخلوق جديراً بأن تسجد له الملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ، فخرّوا له ساجدين ، كما قال الله تعالى عن إخوة يوسف ووالديه : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠) ، أي : لسيدنا يوسف .

كيف يسجد مخلوق لمخلوق؟ ربنا نهانا أن نسجد لأيّ بشر ، ولأيّ مخلوق ، ولكن عالم السماوات ، وعالم الملائكة ، عالم غير عالمنا ، ثم إنّ السجود إذا كان بأمر الله انتهى الأمر ، لم يعد فيه شرك ولا شائبة شرك ، كما نهانا الله أن نقسم بأحدٍ سواه : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ »^(١) .

ولكنّ الله أقسم بالفجر وما بعده : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِمَنْ لَدَىٰ حِجْرِ ﴿٥﴾ (الفجر: ١-٥) .

وبالضحى وما بعده : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ (الضحى: ١-٣) .

وبالعصر : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ (العصر: ١، ٢) .

وبالليل والنهار وما بعدهما : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ ﴿٤﴾ (الليل: ١-٤) .

وبالشمس والقمر وما بعدهما : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ (الشمس: ١-٩) .

(١) رواه أحمد (٥٥٩٣) ، وقال مخرّجوه : إسناده ضعيف لجهالة الرجل الكندي ، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين ، وأبو داود (٣٢٥١) ، والترمذي (١٥٣٥) وقال : حديث حسن ، والحاكم (٢٩٧/٤) وصحّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، ثلاثهم في الأيمان والنذور ، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٢) ، عن ابن عمر .

وبالتين والزيتون وما بعدهما : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا
 الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ (التين: ١-٤) ، وأقسم
 بمخلوقات كثيرة ، ومن حقّه تعالى إذا أقسم أن يقسم بما شاء ، ولكن نهانا أن
 نقسم بغيره سبحانه ، ونهانا أن نسجد لغيره سبحانه ، ولكن إذا أمر بعض خلقه أن
 يسجدوا لبعض ، يجب أن يسجدوا .

سجود الملائكة لآدم :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

القرآن يؤكّد أنّ الملائكة لم يتخلف منهم أحدٌ ، قال تعالى : ﴿ فَسَجَدَ
 الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، ثم أكد هذا . كلمة : ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ ، (كل) للتوكيد . ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ،
 توكيد بعد توكيد .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ، لم يترددوا ، ولم يتلعثموا ولم يتلكأوا ،
 خرّوا سجدًا بعد أمر الله عزّ وجلّ ، اسجدوا فسجدوا كلّهم أجمعون .

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾

امتنع إبليس أن يصير مع الساجدين ، في استجابتهم وفعلهم . هذا إبليس هو
 الذي تمرد على ربّه ، ورفض السجود له .

هل كان إبليس من الملائكة ؟

بعض العلماء قال هذا ؛ لأنّه أمر الملائكة بالسجود وهو معهم ، فلا بدّ أن
 يكون من الملائكة ، ولكنّ القرآن قال في سورة الكهف : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
 اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾
 (الكهف: ٥٠) ، فليس إذن من الملائكة ، خصوصاً بعد أن ثبت في الصحيح أنّ
 «الملائكة خلقوا من نور، وهو خلق من نار»^(١) ، فلا يمكن أن يكون من الملائكة ،

(١) سبق تخريجه ص ٧٩ .

ثم إنَّ الملائكة مفضطرون على الطاعة : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٠) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِمْ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٦) ، إنه تَمَرَّدَ على الله ، فأبى واستكبر ، ورفض وجادل ، تحدَّى الله خالقه ، أبى أن يكون مع الساجدين ، امتنع ورفض^(١) .

سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾^(٢)

قال تعالى : يا إبليس ، ما الذي يمنعك أن تكون مع هؤلاء الساجدين؟! وفي سورة الأعراف : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف: ١٢) ، فإبليس كان عنده أمر ، إما أمرٌ خاصٌّ به ، أو أمرٌ مع الملائكة ؛ لأنه كان يعايش الملائكة ، فأصبح كأنه واحدٌ منهم . الناس تقول : منَ عاشر القومَ أربعين يوماً صار منهم . وهنا : عاش إبليس معهم آلاف السنين ؛ فكأنه أصبح واحداً منهم . فما يصدرُ إليهم من أمر يكون هو أيضاً معهم ، المهم أنه عَرَفَ أنه مأمور ، وهو قال هذا : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) .

هنا لم يقل هذا ، ولكن قال : ﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٣٣)^(٣) .

- (١) إبليس كان مندساً بين الملائكة ، وقد وجَّه الله له الأمر بالسجود لآدم معهم ، باعتباره مندساً معهم ، ويعدُّ نفسه واحداً منهم . ودلت عبارة : ﴿ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ على أنه لم يكن من جنس الملائكة ، وأنه كان مأموراً أن يسجد معهم ولو لم يكن من جنسهم .
- (٢) خاطب الله سبحانه إبليس باسمه المعروف به بين الملائكة وبين الجن ، وترفق بمساءلته .
- (٣) هذا الردُّ من إبليس يعبّر عن استكباره وترفعه واستكنافه عن أن يسجد لمن يعدُّه دونه في الخلق ، ويعبّر عن شكِّه في حكمة الله عز وجل ، واعتراضه عليه ، ولم يذكر إبليس لنفسه عذراً حقيقياً ، بل أجاب بما يكشف عن كِبَره ووقاحته في مخاطبة ربِّه .

انظر كلمة : ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ ﴾ ، اللام هنا يَسْمُونَهَا لام الجحود ، التي تأتي بعد ما كان ، أو لم أكن ، أو لم يكن ، كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٣٧) ، أي : ما كان من شأنه ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ (الأنفال: ٣٣) ، نفي الشأن . أي : ما كان من شأنِي ولا يليق بي أن ﴿ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

إبليس يترفع عن السجود لآدم ، ويرى أنه أفضل من آدم ، لأنه طيني ، وهو ناري ، والنار تأكل الطين ، فكيف يسجد الأفضل للمفضول؟

وفي سورة أخرى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) ، المهم أنه يعترف بأن الله هو خالقه ، وخالق آدم ، ومع هذا يتحدى الألوهية الخالقة ، يرفض أمر الله عز وجل ، وهذه هي المشكلة الإبلسية : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ .

بعض العلماء قيل له : هل رأيت إبليس؟ قال : ما رأيت إبليس ، ولكن إذا رأيت مَنْ يقول : أنا . فهو أخو إبليس أو ابن إبليس .

(أنا) النظر إلى النفس بعين الاستعلاء والاستكبار ، وإلى الغير بعين الازدراء والاحتقار ، هذه هي الإبلسية .

لقد زعم إبليس أنه خير من آدم ، فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّارَ أَفْضَلُ مِنَ الطِّينِ ؟ ربما كان الطين أفضل من النار ، الطين يحيي والنار تميت ، الطين يُعَمَّرُ والنَّارُ تُدَمِّرُ ، صحيح أن كلاً منهما له فائدته ، ولا يَخْلُقُ اللهُ شَيْئاً إِلَّا وَهُوَ فَائِدَةٌ ، عَلِمَهَا مَنْ عِلْمِهَا ، وَجَهَلَهَا مَنْ جَهَلَهَا .

حَسَدُ إبليس وَكِبْرُهُ :

ولكن هذا هو جهل إبليس ، وهذا هو الغرور الذي أدى بإبليس إلى ما أداه إليه . الحسد والكبر ، هما اللذان أفضيا بإبليس إلى هذا التمرد على الله ، والعصيان لأمر الله ، حسد آدم على ما فضله الله به ، واستكبر كما قال الله تعالى : ﴿ أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ ﴾ (البقرة: ٣٤) .

وهاتان الخصلتان - الحسد والكبر - من خصال السوء ، مما يُسميه علماء السلوك : المعاصي الباطنة . ويسمىها الإمام الغزالي : المهلكات ، وعليها قام الربع الثالث من (الإحياء) .

شرُّ المعاصي التي يقع فيها الخلق ، هي المعاصي الباطنة ، وأقلُّ المعاصي هي المعاصي الظاهرة ، فالمعاصي الظاهرة ليست أخطر المعاصي .

خَطَرُ مَعَاصِي الْقُلُوبِ :

أخطر المعاصي : معاصي القلوب : الحسد ، الكِبْر ، الغرور ، الرياء ، حُبُّ المال ، حُبُّ الجاه ، الحقد ، البغضاء ، الغضب ، الكراهية ، وغيرها ، هذه هي معاصي القلوب الخطيرة ، ولذلك كانت معصية آدم من المعاصي الظاهرة ، ومعصية إبليس من المعاصي الباطنة ، معصية آدم كانت الأكل من الشجرة ، وهو أمرٌ حَسِّيٌّ ، دفعت إليه الشهوة والغريزة ، وغررَّ به : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه: ١١٥) .

أما معصية إبليس هذه ، فهي معصية باطنية مُتَحَدِّية ، وقف إبليس نداءً يعارض ربه ويقول : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . . . ﴾ ، فكانت أوَّل معصية وقعت في هذا العالم هي معصية إبليس ، وبعد ذلك معصية آدم .
أوَّل معصية هي معصية إبليس لعنه الله : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) .

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾

خروج إبليس من الجنة وطرده من رحمة الله :

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ ، فارقها وابتعد عنها ، أي : من السماوات ، أو من الجنة ، ليس لك مكان في الملائكة الأعلى الذي فيه الملائكة المُطَهَّرُونَ ، الذين ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحریم: ٦) ، اخرج يا إبليس ؛ لأنك تلوث هذا المكان ، ابتعد عن هذا المكان .

﴿ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْيَانَكَ رَجِيمٌ ﴾^(١) ، مَرْجُومٌ ، مَطْرُودٌ من الرحمة والخير والكرامة ، وملعونٌ ، وهذا مقامٌ لا يقوم فيه الملاعين ولا المراجيم ولا المطاريد .
 ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾^(٢) ، تَلَبَّسُكَ اللَّعْنَةُ ، وَتَرَكُبُكَ اللَّعْنَةُ ، واللعنة : هي السَّبُّ والطرْد . أنت مطرودٌ من رحمة الله إلى يوم الدين ، لا بقاء لك في عالم المَلَكُوتِ ، عالم السَّمَاوَاتِ ، عالم الملائكة ، عالم المُطَهَّرِينَ ، عالم

(١) رجم : على وزن فعيل بمعنى مفعول ، أي : مرجوم بالحجارة ونحوها . والمراد : الطرد من منازل الملائكة الأعلى .

(٢) قال العلامة الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢٠هـ في كتابه (درة التنزيل وغرّة التأويل) (٧٧١/٢) : قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْيَانَكَ رَجِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ، وقال في سورة ص : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (ص:٧٨) . للسائل أن يسأل فيقول : إذا كان المراد بـ (اللعنة) و(لعنتي) شيئاً واحداً ، فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام (اللعنة) ، وفي سورة (ص) مضافاً (لعنتي) ، وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟ والجواب أن يقال : إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدأت في المعتمد بالذكر ، وهو خلق الإنس والجن باسم الجنس المعروف بالألف واللام بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴾ (الحجر:٢٦، ٢٧) ، ثم قال : ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر:٣٢) فكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدأت بمثله القصة ، وهو اسم الجنس المعروف بالألف واللام (اللعنة) . وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك ، لأن أول الآية : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ (ص:٧١) فلم تفتح الآية بذكر الصنفين من الإنس والجن باللفظ المعروف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر . ولما كان موضع ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر:٣٢) جاء بدله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أُسْتَكْبَرْتَ ﴾ (ص:٧٥) فجعل بدل (الساجدين) (أن تسجد) ، ثم قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص:٧٥) فخصَّصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله ، أُجْرِي لَفْظَ مَا اسْتَحَقَّهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى لَفْظِ الْإِضَافَةِ - يعني في قوله تعالى ﴿ لَعْنَتِي ﴾ ، كما قال : ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ ، فقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فكان الاختيار في التوفيق بين الألفاظ التي افتتحت بها الآية واستمرت إلى آخرها . انتهى .

المُقرَّبِينَ ، ليس لك مَوْضِعٌ في هذا المكان ، ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ، إلي يوم الحساب والجزاء .

هل ظلم الله إبليس أو جزاه بعمله؟ لا ، لم يظلمه ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦) ، إنما جَزَاهُ الله بعمله ، هذا الذي وقف متحدِّيًا للألوهية ، كان لا بدَّ أَنْ يُطْرَدَ من رحمة الله عزَّ وجلَّ ، وأن يعلن بهذه الحقيقة : ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ^(١) .

القرآن الكريم كتاب حوار :

ثم بدأ هذا الحوار بين إبليس والله عزَّ وجلَّ ، ولهذا دائماً نقول : إنَّ القرآن الكريم كتابُ حوار من الطَّرَازِ الأول : حوار بين الرسل وأقوامهم : ﴿ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(هود: ٣٢) .

انظر حوارَ سيِّدنا موسى مع فرعون وملئه ، في سورة طه : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ ^(١٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ

(١) وفيه إشعار بتأخير عقابه الشديد غير اللعن إلى هذا اليوم ، وأنَّ اللعنة مع شدتها ليست وحدها جزاء فعله ، وأنَّ الجزاء الأوفى يناله يوم القيامة ، ومنه الخلود في جهنم . وليس معنى ذلك : أنَّ اللعنة تنقطع عنه إذا جاء يوم القيامة ، بل المراد أنه عند ذلك اليوم يرى من الهول ما تصير معه اللعنة كأنها لا شيء ، وبهذا نعلم أن اللعنة باقية تتبعه في جهنم . فيلعنه كل من فيها ، ويلعنه المؤمنون . كما قال سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا ﴾ (الأعراف: ٣٨) ، وقال عز وجل : ﴿ فَأَذَّنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٤٤) ، وقال عز وجل : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (العنكبوت: ٢٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَعْزَمْنَا بِكُم بَغْيًا ﴾ (الأحزاب: ٦٧، ٦٨) .

وَتَوَلَّى ﴿١٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . . ﴿ طه: ٤٧-٧٦ ﴾ ، الآيات .

وفى سورة الشعراء : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢١﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ . . ﴿ الشعراء: ١٦-٥٠ ﴾ الآيات ، حوار طويل .

الأنبياء يحاورون الله سبحانه : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . ﴿ هود: ٤٥-٤٧ ﴾ .

والله عزَّ وجلَّ يحاور الملائكة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

وأخيراً نرى حوارَ الله لشرِّ خلقه إبليس ، فتح الباب لإبليس ليحاوره : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٦﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ الحجر: ٣٦-٣٩ ﴾ فهذا يدلُّنا على أنَّ الحوار في هذا الدين ليس أمراً غريباً ، بل هو فريضة في هذا الدين ، وإنا مأمورون أن نحاورَ مخالفينا : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۗ وَجَدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿ النحل: ١٢٥ ﴾ ، الموعظة الحسنة مع الموافقين ، والجدال بالتي هي أحسن مع المخالفين ، فهذا ما يعلمنا إيَّاه هذا القرآن العظيم . فتح الله لإبليس باب الحوار ، لم يغلق عليه الباب ، طلب من الله أشياء فأجابها له .

طلب إبليس الإمهال إلى يوم البعث :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

أي : طلب من ربه أن يؤخره ويمهله إلى يوم يبعثون ، يوم يبعث آدم وذريته للحساب والجزاء ، أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت تمكنه من إفساد بني آدم ، فيثأر من آدم وذريته ، وأراد أيضاً أن ينجو من الموت الذي يعم كل حي عند النفخة الأولى .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾

أي : إلى وقت النفخة الأولى يوم موت الخلائق ، أو إلى ما شاء الله في الوقت المحدد ، سينتهي أجله .

ابتلاء الإنسان بتزيين الشيطان وإغوائه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

هذا دلالة على أن هذا الإنسان الذي خلقه الله بيديه ، ونفخ فيه من رُوحه ، وأسجد له ملائكته ، وكرمه أفضل تكريم ، وخلقه في أحسن تقويم ، هذا الإنسان حياته قائمة على الابتلاء .

نحن ذكرنا أن هذا الإنسان مخلوق ، خلقه ربُّ خالقٍ عظيمٍ ، وليس كما يدعي المدعون ، أنه أنشأته الطبيعة ، أو مُصادفات عمياء ، أو غير ذلك ، لا ، هو مخلوق خلقاً مستقلاً ، يعني لم يتطور عن مخلوق غيره ، كما قالوا : إنه تطوّر من كذا إلى كذا ، إلى قرد ، إلى إنسان . لا ، هو مخلوق : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) ، ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٨) فهو مخلوقٌ قصداً واستقلاً .

وهو أيضاً مخلوق على أساس الابتلاء : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان: ٢) ، ومن ابتلاء الله للإنسان : ابتلاؤه بالشیطان ، بهذا العدو الداهية الماكر المتربص للإنسان ، لا يغفل عنه أبداً ، هذا الشيطان إبليس ، حينما أخرجه الله من السموات ، أو أخرجه من الجنة ، أو أخرجه من مستقر رحمة ، وخاطبه بقوله : ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (١٦) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، لعنه الله ، ولعنه الناس ، لا يوجد أحد يلعن كما يلعن إبليس ، فعليه لعنة الله إلى يوم الدين ، هنا قال إبليس : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ إبليس يعترف ببريئة الله عز وجل ، ويعترف بأن الله خالقه : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) (ص: ٧٦) ، فهو معترف بأن الله هو خالقه ، وخالق آدم ، وخالق الكون ، وأنه ربه ، لذلك يقول : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

الباء في قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ للقسم أو السببية :

(الباء) هنا في ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ ، هل هي للقسم؟ يعني : بحق ما أغويتني . كما قال في سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٢) ، هل الباء للقسم؟ أي : أقسم بإغوائك إياي لأزینن لهم في الأرض . أو الباء للسببية؟ أي : بسبب ما أغويتني .

الباء تأتي في اللغة العربية للسبب : ﴿ فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (المائدة: ١٣) ، فسبب نقضهم . وهنا احتمالان قائمان ، البعض يقول : إن الفعل لا يجوز الإقسام به ، إلا إذا جاء بالصفة . مثل ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ، وهي صفة من صفات الله ، إنما بإغواء الله! ولذلك قالوا : لا ، الباء للسببية . أي بسبب ما أغويتني : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، والضمير (لهم)

لذرية آدم ، كما قال : ﴿لَأَحْتَكِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٢) ، وكما قال أيضاً في سورة الأعراف : ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦) ، سأقف على الصراط المستقيم ، حتى لا يسلك هذا الصراط أحد .

إيليس قاطع طريق :

فإيليس قاطع طريق ، كما وصفه الله سبحانه : ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تِيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦، ١٧) ، من كل جهة سأقطع عليهم السبيل ، ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ : يرغبهم في الدنيا . ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ : يشككهم في الآخرة ، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ : يُثَبِّطهم عن الحسنات ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ ، يرغبهم في السيئات . وقيل : لم يذكر جهة فوق ؛ لأنها جهة الرحمة المنزلة من الله ، ولا جهة تحت ، التي هي جهة السجود لله ، كما جاء في الحديث : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١) . ولكنه قال هنا : سأفعل كل ما أستطيع من كل جهة فهو يبذل جهده ، ويكيد كيده للإنسانية ، حتى يضلهم عن سبيل الله .

سُئل الإمام الحسن البصري : قيل له : هل ينام الشيطان؟ قال : لو نام لاسترحنا^(٢) . ولكنه لا ينام ، لا يأخذ إجازة ، لا يستريح ، يعمل ليل نهار ، وصيف شتاء ، في كل وقت ، مُخلصٌ لمهمته في إيذاء الإنسان ، وإضلال الإنسان ، وإغواء الإنسان .

التزيين والإغواء :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أُغْوِيْتَنِي لِأُرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، هذا عمل الشيطان ، عمله مع الإنسان : التزيين والإغواء .

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢) ، وأحمد (٩٤٦١) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥) ، والنسائي في الكبرى في الصلاة (٢٢٧) ، عن أبي هريرة .

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٣١) .

يُزَيِّنُ لِلإِنسَانِ السُّوءَ ، وَيُجَمِّلُهُ لَهُ ، وَيُحِبِّبُهُ فِيهِ حَتَّى يَرَاهُ حَسَنًا : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨) .

يُزَيِّنُ لَهُ القَبَائِحَ وَالمَعَاصِيَ وَالشَّرْكَ ، حَتَّى الكُفْرَ وَالنِّفَاقَ وَالرِّيَاءَ ، كُلَّ المَعَاصِي ، مَعَاصِيَ الجَوَارِحِ وَمَعَاصِيَ القُلُوبِ ، يُزَيِّنُهَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَيُحِبِّبُهَا إِلَيْهِمْ ، وَيُحَسِّنُهَا لَهُمْ .

وَبَعْضُ النَّاسِ - لِلأسَفِ - يَغُرُّهُمْ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ (النمل: ٢٤) ، وَهَمُ أَهْلِ سَبَأِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ ، كَمَا قَالَ الِهُدُودُ : ﴿ وَجَدْتُمْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل: ٢٤) .

الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ الأَعْمَالَ تَزْيِينًا ، يُزَيِّنُ الدُّنْيَا : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البقرة: ٢١٢) .

يُزَيِّنُ البَاطِلَ وَيُبْرِزُهُ فِي صُورَةِ الحَقِّ ، يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ الحَضَارَةَ الحَدِيثَةَ ، يُزَيِّنُ المُنْكَرَ حَتَّى يَصْبِحَ مَعْرُوفًا ، وَيُزَيِّنُ المَعْصِيَةَ حَتَّى يُغْرَى النَّاسُ بِهَا ، وَلَا يَشْبَعُوا مِنْهَا أَبَدًا ، لِأَنَّ المَعَاصِيَ كُلَّمَا أَزْدَدَتْ مِنْهَا شَرْبًا أَزْدَدَتْ لَهَا عَطَشًا ، فَهَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ ، زَيِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .

الفرق بين الإغواء والإضلال :

فالشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ لِلبَشَرِ فِي الأَرْضِ ، وَيُغْوِيهِمْ كَمَا قَالَ : ﴿ لِأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ ، بَعْضُ المَفْسَّرِينَ يَقُولُ : أُغْوِيَهُمْ أَي : أُضِلُّهُمْ . وَلَكِنْ فِي الحَقِيقَةِ القُرْآنَ يَقُولُ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (النجم: ٢) ، إِذْ الضَّلَالُ شَيْءٌ ، وَالإِغْوَاءُ شَيْءٌ ، فَالضَّلَالُ يَتَعَلَّقُ بِفَسَادِ الفِكرِ وَالعَقْدِ ، وَالإِغْوَاءُ يَتَعَلَّقُ بِفَسَادِ العَمَلِ وَالسُّلُوكِ ، وَلِذَلِكَ الضَّلَالُ يَقَابِلُهُ الهُدَى ، وَالعَويُّ أَوْ العَوَايَةُ يَقَابِلُهَا الرُّشْدُ : ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الِغْيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ، فَالعَويُّ أَنْ يَفْسِدَ سُلُوكُ الإِنسَانِ ، أَنْ يَسُوءَ خُلُقَهُ ، فَكَأَنَّ

التزيين يتعلّق بالجانب الفكريّ ، يزيّن للناس أفكار السوء ، ومفاهيم السوء ، وبدع السوء ، ونظريات السوء ، الذين يتبعون ماركس ، الذين يتبعون فرويد ، الذين يتبعون دوركايم ، فهؤلاء الناس الذين يزيّنون الباطل لغيرهم ، فيسمّون الماركسيين ، أو العلمانيين باسم فئة النخب المثقفة ، أو صفوة المجتمع ، هؤلاء من الذي صنع لهم ذلك ، وزيّن لهم هذه الأفكار ، فحسبوا الباطل حقاً ؟

فالتزيين يتعلّق في الغالب بالجانب الفكري ، والإغواء يتعلّق بالجانب العملي ، فأفسد عليهم أفكارهم ، وأفسد عليهم أعمالهم ، هذا هو عمل الشيطان : ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) .

طموح الشيطان وعلو همته في التزيين والإغواء :

انظر إلى طموح الشيطان وعلو همته في التزيين والإغواء ، لم يقل : أضل مليوناً ولا مليونين ولا ثلاثة ملايين ولا عشرة ملايين . بل قال : ﴿وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . يشتغل مع البشر جميعاً ، أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم ، شرفيهم وغربيهم ، كبارهم وصغارهم ، رجالهم ونسائهم ، أغنيائهم وفقرائهم ، حكامهم ومحكوميهم . ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ، حتى كلمة في الأرض ، تعنى كل الأرض ، في الأرض كلها ، ﴿وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

المستثنون من تزيين الشيطان وإغوائه :

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾

يقول الإمام الرازي^(٢) : إن إبليس لم يرض أن يكون كاذباً ، فيدعي أنه يضلّ الناس جميعاً ويغوي الناس جميعاً ، فاستثنى : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ ،

(١) أي : كلهم في كل زمان ومكان .

(٢) في تفسيره (١٦/١٦٨) .

هؤلاء لا أقدر عليهم . وهذا دليل على حساسة الكذب حتى عند إبليس نفسه ،
فإبليس نفسه لم يرد أن يكون كذاباً .

قال : ﴿ لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُوبِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ ﴿ وفي قراءة من القراءات السبعة : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ ﴾ (١) ، الذين أخلصوا دينهم لله ، أو الذين أخلصهم الله لدينه وهداهم
واصطفاهم ، فهؤلاء لا أستطيع أن أغويهم . كلتا القراءتين لها معناها ، وبينهما
تكامل فكري .

أثر الإخلاص في العمل :

معنى (المخلصين) الذين وُصفوا بالإخلاص ، والإخلاصُ : تصفية العمل من
كلِّ شائبة ، فلا يكون العمل إلا ابتغاء رضوان الله عزَّ وجلَّ ، لم يعمل العمل لأيِّ
غرضٍ من الأغراض ، لا ليرضي الناس ، لا ليراه الناس ولا ليحمدوه ، ولا للشهرة
ولا للمال ولا للجاه ولا للمنصب ، لا تدخل الدنيا بكلِّ أعراضها ، بكلِّ زخارفها ،
بكلِّ ما يحرص الناس عليه فيها ، لا يدخل شيءٌ من هذا في نيَّته وفي هدفه ،
حينما عمل ، وهذا هو الإخلاص .

الإخلاص - كما قال الجنيد - سرٌّ من الأسرار ، لا يطلع عليه ملكٌ فيكتبه ،
ولا شيطانٌ يفسدُه ، ولا هوىٌ فيميلُه (٢) .

الإخلاصُ سرٌّ بين العبد وبين ربِّه ، حتى قال بعض السلف : طُوبى لمن صحَّت
له خطوة لا يريد بها إلا وجهَ الله عزَّ وجلَّ (٣) .

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب : (المُخْلِصِينَ) بكسر اللام ، أي : الذين
يخلصون لك الإيمان والعمل ، فأنت تحميهم من الغواية بسبب إخلاصهم لك ، وقرأها
باقي العشرة : (المُخْلِصِينَ) ، أي : الذين تستخلصهم وتصطفاهم ، فتعصمهم من الغواية .
ينظر : معجم القراءات القرآنية (٢/٢٥٤) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٩٢) .

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٣٧٨) .

وكلُّ منا يسأل نفسه : هل أنا أريد وجهَ الله؟ لا بدَّ أن نُفتِّش في أنفسنا ، ونقول : هل هذا العمل لوجه الله ، أو فيه شائبة من شوائب الدنيا؟ هكذا يجب على الإنسان أن يرصد نفسه ، يراقب نفسه ماذا في نفسه من الرغبة الحقيقية في رضا الله ، والرغبات الأخرى التي تدخل عليه ، وكثيرٌ من الناس لا يراقب نفسه وأعماله ، ويظنُّ أنها لله ، وهي ليست لله سبحانه .

إخلاصُ الدين لله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ ، حينما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (١٤٦، ١٤٥) ، أخلصوا دينهم لله ، فالإخلاص أن الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٥، ١٤٦) ، أخلصوا دينهم لله ، فالإخلاص أن تُخلص دينك لله ، أو يُخلصك الله لدينه : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ ، أو ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ . هذا ما قاله إبليس ، فبماذا ردَّ الله تعالى عليه؟

الطريق الموصل إلى الله :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١٠٨) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿

﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، هذا طريقٌ واضح ، قال : ﴿ عَلَيَّ ﴾ بمعنى إليّ ، أي : يوصل إلى طريق مستقيم مُسَدَّد لا خَلَل فيه ولا إِخْلَال ، هذا الإخلاص ، إخلاصُ الدين لله من العبد ، أو إخلاص الله العبد لدينه ، هذا هو الطريق المستقيم الموصل إلى الله عزَّ وجلَّ ، فليس هناك طريقٌ موصل إلى الله أعظم من الإخلاص لله تبارك وتعالى ، وإخلاص العبد لدينه .

سُنَّةُ اللَّهِ فِي حِفْظِ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ مِنَ الشَّيْطَانِ :

وهناك رأيٌ آخر في معنى الآية : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، هذا طريقٌ متَّبَعٌ عندي ، سُنَّةٌ من سُنَنِ ، من هذه السُّنَنِ : أني لا أُمَكِّنُ الشَّيْطَانَ من عِبَادِي الْمُخْلِصِينَ الْمُخْلِصِينَ .

﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، ما : هو الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ؟ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ ﴾ ، أطاعك وانقاد لك ، ﴿ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ .
هناك قراءة قرأ بها بعض السَّلَفِ ، ومنهم يعقوب ، وهو من القُرَاءِ العَشْرَةِ أَنَّهُ قرأ : (هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ ^(١) مُسْتَقِيمٌ) ، لأنَّ الصِّرَاطُ عَلَيَّ رَفِيعٌ ، أي : رفيع المنزلة ، ومستقيم لا عِوَجَ فيه ولا أُمَّتْ ، هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . المهم هذا الصِّرَاطُ ، وهذه السنة ، أو هذه الطريقة : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ .

المراد بالاستثناء في قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ ﴾

هل الاستثناء هنا في قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ ﴾ استثناء متَّصِلٌ؟ أم استثناء منقطع؟

البعض يقول : إنه استثناءٌ منقطع . إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ قط ، ليس لك سلطان على أحدٍ من عِبَادِي ، إلا من اتَّبَعَكَ من الغاوين ، أنت ليس لك سلطان عليهم ، إنما تُوسوس لهم ، فيتَّبَعَكَ بعض الناس ، إنما ليس لك قدرة عليهم ، كما سبق أن ذكرنا في تفسير سورة إبراهيم : حينما ذكرنا قول الشيطان يوم القيامة :

(١) بكسر اللام ورفع الياء وتوניהا ، من العلو ، أي : رفيع ، وقرأ الباقون : (عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) بفتح اللام والياء من غير تنوين . ينظر : النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري (٣٠١/٢) ، ومعجم القراءات القرآنية (٢٥٤/٣) .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(إبراهيم: ٢٢) .

ليس للشيطان سلطان يؤثر به على العباد ، لأن الذي أتبع إبليس ، أتبعه باختياره ، ولم يقهره إبليس على شيء ، دَعَاهُ ووسوس له ورغبه في السيئات ، وَكَبَّطَهُ عن الحسنات ، فاستجاب له ، فهم الذين أتبعوك ، هؤلاء الغاؤون هم الذين أتبعوك ، وأنت ليس لك عليهم سلطان ، هذا إذا قلنا : إنَّ الاستثناء منقطع .

معنى الاستثناء المنقطع فى اللغة العربية ، إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه ، نقول عنه : استثناء متصل ، مثل : حضر القوم إلا إبراهيم ، إبراهيم من القوم ، إنما تقول : حضر القوم إلا حمارهم ، حمارهم ليس من القوم ، فُسِّمِيَ استثناءً منقطعاً ، ولكنَّ حمارهم لم يحضر ، فالاستثناء المنقطع بمعنى الاستدراك . لكن إذا قلنا : إنه منقطع نقول : إبليس ليس له سلطانٌ على أحدٍ . وإذا قلنا : إنه متصل نقول : إنَّ له سلطاناً على هؤلاء الغاوين .

والمراد : بالإغواء : القدرة على إغوائهم ، وإبعادهم عن صراط الحق والهدى ، ولعلَّ هذا معنى يؤيده قول الله تعالى فى سورة النحل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ (النحل: ٩٨-١٠٠) ، فله سلطانٌ إذن حسب هذه الآية على مَنْ يَتَوَلَّوْنَهُ .

النجاة من كيد الشيطان :

الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴾ ، فعباد الله ، الْمُخْلِصُونَ أو الْمُخْلِصُونَ؟ ، ليس للشيطان عليهم سبيلٌ ، كاد لهم ، ولكنهم نَجَوْا من كَيْدِهِ بذكر الله عزَّ وجلَّ ، بالاستعاذة بالله من شرِّ الشيطان

وَهَمَزُهُ وَنَفَثَهُ وَنَفَخَهُ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿ (المؤمنون: ٩٧، ٩٨) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (الناس: ١-٦) .

آخر سورة في القرآن سورة الناس ، كلها قائمة على الاستعاذة من هذا الوسواس الخناس . خناس أي : يَخْنِسُ ويختفي ويهرب . إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَنَّسَ الشيطان ، ولذلك هو يستحوذ على الناس بأن ينسيهم ذكرَ الله : ﴿ أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ (المجادلة: ١٩) ، إِنَّمَا حِزْبُ الرَّحْمَنِ حِزْبُ اللَّهِ : ﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَالِحُونَ ﴿ (المجادلة: ٢٢) ، هؤلاء لا يقدر عليهم الشيطان . قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجنّ » .

قالوا : وإيَّاك ، يا رسولَ الله ؟

قال : « وإيَّاي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » ^(١) . حتى الشيطان يمكن أن يُسَلِّمَ .

لم يخلق الله تعالى مخلوقاً شراً محضاً :

وربنا لم يخلق مخلوقاً شراً محضاً ، يستحيل أن يخلق الله شراً محضاً ، الشرُّ المحض ليس من صنع الله عزَّ وجلَّ ، الأصل كما قال الله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦) ، وكما قال النبيُّ ﷺ : « الخير كله في

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٤) ، وابن حبان في التاريخ (٦٤١٧) ، والطبراني في الكبير (٢١٨/١٠) ، عن عبد الله بن مسعود .

يديك ، والشرُّ ليس إليك»^(١) . فما نراه من شرِّ فهو شرٌّ جزئيٌّ ، وإضافي ونسبي ، وهو ضروريٌّ لأشياءٍ أخرى .

فالمطر ينزل أحياناً ينفع كثيراً من الناس والأحياء ، ويصيب بعض الأشياء ، ويضرُّ بعض الأشياء ، لكنّ هذا ليس مقصوداً ، المقصود إحياء الأرض بعد موتها واستفادة الناس ، فكونه يضرُّ أشياء هذا من لوازم الخير .

فالله لم يخلق شرّاً محضاً ، فكلُّ ما خلقه الله تعالى لحكمةٍ عظيمةٍ ، ولا تعجب - أيها القارئ الكريم - إذا علمت أنّ الشيطان ، حتى الشيطان نفسه فيه خير ، وحتى إبليس نجد أنه في خطاب الله عزَّ وجلَّ ، نجد فيه بعض الأدب ، ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ ، اعتراف بالربوبية ، ونحو هذه الآيات فيها دليل على أن الله لم يخلقه شرّاً ، فقد ظلَّ آلاف السنين يتعبَّد مع الملائكة ، ثم أصابته هذه النكسة المهلكة .

سبب إيقاع إبليس لآدم وذريته في الزلل :

هنا سؤال : قد يُقال : إذا كان الشيطان ليس له سلطانٌ على عباد الله المُخلصين كيف أزلَّ آدم وزوجه؟ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ، أزلَّهُما حتى أكلا من الشجرة ، حتى حدث ما حدث .

وكيف أزلَّ الصحابة في غزوة أحد؟ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آلَتْقى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥) .

وحتى الأنبياء ، سيدنا موسى لما وكز الرجل فقضى عليه : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (القصص: ١٥) ، وقد كان وقع هذا قبل البعثة؟

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) ، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ، عن علي بن أبي طالب .

نقول : إنَّ الشيطان ، ليس له سلطانٌ على المُخلصين ، أي : ليس له سلطانٌ على قلوبهم ، بحيث يستولي على قلوبهم ، ويصرفها كيف يشاء ، أو ليس له سلطانٌ بحيث يوقعهم في ذنب لا يرجى العفو منه ، لا يستطيع أن يوقعهم في الشرك والعياذ بالله ، أو شيء من هذا ، إنما الوقوع في بعض الذنوب التي تُمحي بالتوبة والاستغفار هذا قد يقع من المخلصين .

سيدنا موسى قال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص: ١٥-١٧) .
وسيدنا آدم : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ (طه: ١٢١، ١٢٢) .

وسيدنا نوح قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (هود: ٤٧) .

وسيدنا يونس قال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) .

فالإنسان يمكن أن يغلب الشيطان بالتوبة ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ إبليس قال لربه عزَّ وجلَّ : وعزَّتْك وجَلَّلك لا أبرح أُغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال له ربه عزَّ وجلَّ : فبعزَّتِي وجَلَّالي ، لا أبرح أُغفر لهم ما استغفروني»^(١) . أنت تهلكهم بالذنوب ، وهم يهلكونك بالاستغفار ، أغفر لهم ما استغفروني .

(١) رواه أحمد (١١٣٦٧) ، وقال منخرَّجوه : حسن ، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٦١/٤) وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٢/٨) ، عن أبي سعيد الخدري .

موعد الغاووين في جهنم :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١)

هؤلاء الغاوون الذين أتبعوا غواية الشيطان ، وتزيين الشيطان ، وساروا في ركب الشيطان ، مصيرهم إلى جهنم ، دار العذاب في الآخرة ، كما قال عز وجل : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٥) ، مصيرهم إلى جهنم ، إن جهنم لموعدهم ، مكان لقائهم ، الموعد هنا : اسم مكان ، وأحيانا الموعد اسم زمان : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ (طه: ٥٩) الموعد : اسم زمان ، ﴿ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هنا الموعد : اسم مكان ، سيلتقون في وقت التقائهم في جهنم : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : كلهم مجتمعين لا يتخلف منهم أحد .

أبواب جهنم وأبواب الجنة :

﴿ هَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمُ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

جهنم لها سبعة أبواب ، كل باب له طائفة سوف تدخل منه ، وهو مميز عن غيره . وأما الجنة ففيها ثمانية أبواب ، كما جاء في الصحيح : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »^(٢) .

(١) جهنم : اسم علم من أسماء دار العذاب التي أعدها الله ليعذب فيها الكافرين المجرمين والعصاة يوم الدين . ولفظ (جهنم) ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . ويقال للقعر البعيد : (جهنم) ويقال : بئر جهنم أي : بعيد القعر .

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٤) ، وأبو داود في الطهارة (١٦٩) ، والنسائي في الطهارة (١٤٨) ، عن عقبة بن عامر .

وجاء في الصحيح: «في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يُسمى الرِّيَّان ، لا يدخله إلا الصَّائمون»^(١) .

فالجنة فيها أبواب ، والنار فيها أبواب ، وكلُّ باب له نصيبه ، كم مليون ، أو كم مليار ، أو كم تريليون ، أو كم دشليون ؟ لا نعرف أعداد الذين سيدخلون إلى جهنم ، إنما كلُّ باب له جزءٌ مقسوم .

طبقات جهنم ودركات الكفار فيها :

بعض السلف فسّر الأبواب بأنها الطباق^(٢) ، في كلِّ باب ، أي : في كلِّ طبقه^(٣) ، فالنار طبقات بعضها فوق بعض متوالية في المراتب^(٤) ، أو دركات كما جاء في سورة النساء : ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ١٤٥) .

إذن يوجد درك أسفل ، ودرك أعلى ، وأدراك متوسطة بين الأسفل والأعلى ، وهذا معقول ؛ لأنَّ الناس ليسوا سواسية فيها ، فهناك الكافر ، وهناك الكافر الظالم : الذين كفروا وظلموا ، أو الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: ٨٨) ، فساد هذا ليس في نفسه ، بل أفسد غيره .

الإنسان الظالم الذي ذبَّح من البشر من ذبَّح ، ذبَّح آلافا من الناس ، أو ملايين من الناس ، من المستضعفين والمظلومين ، هل هذا الكافر يتساوى مع الكافر

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) كلاهما في الصوم ، كما رواه أحمد (٢٢٨١٨) والترمذي في الصوم (٧٦٥) عن سهل بن سعد .

(٢) جمع طبق ، أي : طبقة .

(٣) ويمكن التوفيق بين القولين : أنَّ الأبواب مداخل إلى جهنم ، وكلُّ من مطيعي إبليس يدخل من باب بحسب عمله ، وهو يوصله إلى الدرك المناسب له . ينظر : تفسير ابن كثير (٥٣٢/٢) .

(٤) وهو قول كثير من المفسِّرين ، جعلوها سبع طبقات متوالية ، هي جهنم ، فلفي ، فالحطمة ، فالسعير ، فسقر ، فالجحيم ، فالهاوية . وجهنم إحدى هذه الطبقات وأولها ، ولكلِّ فئةٍ من مطيعي إبليس طبقة .

أو الفاسق الذي فسق في نفسه ، وشرب الخمر ، وارتكب الزنى ، وعمل المعاصي ، دفعته شهواته وضعفه إلى مثل هذا ، هل هذا مثل ذاك ؟

اختلاف أنواع العذاب في جهنم :

ولذلك يقول الله تعالى عن آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا^ط وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٦) ، فهناك عذاب شديد ، وهناك أشد العذاب .

هدد الله سبحانه الذين طلبوا من سيدنا عيسى المائدة ، فقال تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ^ط فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة: ١١٥) ، بعد ما طلبتم المائدة وجاءتكم من السماء ، ثم تكفرون بعد ذلك ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فأنواع العذاب تتفاوت ، كما أن درجات النعيم تتفاوت .

درجات النعيم في الجنة :

القرآن ذكر لنا في سورة الرحمن : ﴿ وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (الرحمن: ٤٦) ، وذكر لنا ما في الجنّتين من نعيم ، ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٦٢) ، النبي عليه الصلاة والسلام قال : « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، فوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »^(١) .

فالجنة تتفاوت في درجاتها ، والنار تتفاوت في دركاتها .

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . وارزقنا الفردوس الأعلى .

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) ، وابن حبان في السير (٤٦١١) ، والبيهقي في السير (١٨٢٧٥) ، عن أبي هريرة .